كراهية الأردنيين خطيئة

الدكتور عبد الستار قاسم

12/جمادى الثانية/1422

يسمع المرء أحيانا عبارات غير ودية تصدر عن فلسطينيين تجاه الأردنيين، وعبارات أخرى مشابهة صادرة عن أردنيين بحق الفلسطينيين. وتخرج الأمور أحيانا عن حدود الهمس والمجالس الخاصة إلى حيز العلن والجهر بالقول. ويبدو للمرء أحيانا أن الأمر عبارة عن ظاهرة وليس مجرد عبارات عابرة تعبر عن ضيق مؤقت أو استياء من شخص بعينه، ويخرج بانطباع ليس بالضرورة مؤكدا حول كراهية متبادلة بين الفلسطينيين والأردنيين. صحيح أن في الحياة حب وكراهية ولكل امرئ هواه، لكنه من الصعب أن يتحول الهوى الفردي إلى موقف كلي يمكن أن ينسحب على الجماعة. هذا إلا إذا كانت تربية الحب والكراهية تقوم على التعصب الأعمى المقيت ولا تأخذ بحسبانها معايير موضوعية إنسانية.

قد يدفعك التعصب الأعمى الذي يقوم في الغالب على السذاجة والبدائية في اتخاذ المواقف إلى اقتراف الموبقات من أجل من تهوى أو ضد من تكره. فمثلا تؤدي الانتخابات التي تعتمد القبلية كأساس للاختيار إلى اختيار ابن القبيلة حتى لو كان منحطا ومع معرفة الناخب المسبقة بفساد مرشحه وعدم صلاحيته لقيادة عمل عام، وكذلك إلى عدم اختيار من يصلح لأنه من قبيلة أخرى أو تنظيم آخر. وفي تاريخنا العربي القديم والحديث ما يشهد على هذا السلوك الذي جلب علينا الاقتتال والتمزق والضعف والضياع. وعلى الرغم من التطور الذي يشهده العالم في مختلف المجالات إلا أن بعض المجتمعات العربية، إن لم يكن كلها، ما زالت تصر على حمل تراث انفعالي تعصبي فاشل لا يأتي على أصحابه إلا بالدمار. يدخل العالم عصورا سريعة التعاقب من النواحي العلمية والتقنية والإدارية ونحن ما زلنا نجتر داحس والغبراء والشيعة والسنة.

سلب اليهود فلسطين، على الأقل حتى اللحظة، وتشرد أغلب أهلها، وها هم اليهود يزحفون على شرقي الأردن بينما يبقى من بيننا من يشغل نفسه ويشغلنا جميعا بمواقف بائسة وسخيفة تُبعد ولا تقرب، تمزق ولا توحد، تضعف ولا تقوي، تؤرق ولا تريح، تغم القلب ولا تبهجه. يتطلع اليهود نحو الشرق لتكتمل عندهم الأرض المقدسة التي لهم فيها مطالب دينية وتاريخية وسياسية. لقد اشتروا الأراضي شرقي النهر قبل عام 1948، وهم يستمرون الآن في الشراء. وهم يعملون على ربط الأهل شرقي النهر بعجلة اقتصادهم من خلال سياستين رئيستين: فتح باب العمل للأردنيين في المعامل والمزارع الصهيونية غربي النهر وفتح المعامل والمصانع لتشغيل الأيدي العاملة شرقي النهر. إنهم يتبعون سياسة اقتصادية مشابهة لتلك التي خططوها ونفذوها في الأرض المحتلة وذلك بهدف إلحاق الناس اقتصاديا فيسقطون بأيديهم ومعهم بلادهم. الخطر داهم وهو يزحف تدريجيا ولكن بنوع من الحذر على شرقي الأردن. لكنه لا ينجي الأمم مما يحدق بها إلا مواقفها الجماعية التي تعبر عن وحدة الهدف والمصير، ولا يضعها في مهب الريح تحت وقع أقدام أعدائها إلا تمزقها وتشتت أهدافها.

يقول فلسطيني أن هناك ممارسات تدفع باتجاه اتخاذ مواقف تخرج بالتأكيد عن العقلانية والحكمة والمنطق. وهذا نفسه هو قول أردني انجرف مع بعد شعبي يمكن ملاحظته في الشارع الأردني. إذا تم ردّ الأمور إلى منطقها فإنه لا يوجد حقيقة ما يدفع باتجاه بغضاء خاصة أن الشعبين الفلسطيني والأردني يعانيان من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية تكاد تكون متماثلة وهي تدفع باتجاه التعاون والمحبة والعمل الجماعي. لكن تقديري أن هناك عوامل

سياسية دفعت الناس غصبا نحو مواقف لا تمت إلى المصلحة العامة بصلة. وربما هذه هي العوامل التي يرددها فلسطيني يرى الجيش الأردني مكوّنا في العموم من أردنيين ويعمل بجد على حماية حدود إسرائيل، أو يرى الإدارة العامة بيد أردنيين دون أن يكون للفلسطينيين نصيب وافر في وظائفها.

هذه أمور وما شابهها واضحة للعيان لكن الشعب الأردني لا يتحمل مسئوليتها وإنما النظام. حاول النظام عبر السنوات على إفراد الجيش والوظائف العامة للأردنيين بينما ترك للفلسطينيين حرية الانشغال بالأعمال التجارية والصناعية. بهذا الأسلوب يستطيع أن يربط الأردنيين به من خلال الرواتب مع ضمان الولاء على اعتبار أن الدولة أردنية يتربص بها الفلسطينيون، ويستطيع تطويع الفلسطينيين الذين ينظرون إلى رضا النظام كأساس لاستمرار أعمالهم. وبنفس الوقت عمل النظام من خلال أجهزة مخابراته على بث الشكوك والكراهية بين الطرفين. لا يتوانى جهاز المخابرات عن تأليب الأردنيين على اعتبار أن الفلسطينيين غير مؤتمنين، ولا يتوانى عن إشعار الفلسطينيين بأنهم موضع شك وتحت المراقبة من قبل الأردنيين. والنتيجة شلل شعبي في ردود الأفعال بما يخص القضايا العامة. هذه هي سياسة فرق تسد.

الأردنيون هم أصحاب الوظائف لكنهم الأكثر حاجة، والفلسطينيون أصحاب المال لكنهم الأقل نفوذا. هذا يوازن ذاك وما على النظام إلا أن يطمئن. علما أن النظام الهاشمي لا يفرق حقيقة بين أردني وفلسطيني، أو بين شرقي وغربي، أو عربي وشركسي أو جنوبي وشمالي. إنه يفرق فقط بين موالي وغير موالي. أصدقاؤه هم الموالون له بغض النظر عن أمهاتهم وآبائهم، وبث بذور الفساد ما هي إلا معالجات سياسية من أجل أن يتلهى الناس عن مشاكلهم الحقيقية وعلى رأسها الخطر الصهيوني الذي يهدد الأردن بعد أن التهم فلسطين. وعلى النمط الميكافيللي المخادع لا يتوانى النظام عن الحديث عن الوحدة الوطنية وتوعد أولئك الذين ينثرون بذور الفرقة والفساد. هذا كلام غير مُكلف ويمكن أن يذر الرماد في عيون كثيرين يظنون أن الكلام المنمق يعبر عن الحقيقة.

ولهذا فإن عبارات الكراهية التي يسمعها المرء من هذا الشخص أو ذاك بغض النظر عن الطرف الذي ينتمي إليه لا تخدم إلا النظام والصهيونية. وإذا كنا وطنيين حقا ومسلمين حقيقيين أو مسيحيين مؤمنين فإنه لا يمكن أن نستسلم لسياسات قبيحة تمزق الناس ولا توحدهم. فإذا كان هناك فلسطيني يظن أنه يخدم قضيته في الجري وراء سياسات النظام ويتخذ موقفا سلبيا تجاه الأردنيين إنما يقترف في الحقيقة خطيئة وإثما وهو من الضالين وطنيا ومن المتجاوزين لقاعدة إسلامية أساسية تحرم على المسلم كراهية أخيه المسلم. وكذلك الأمر بالنسبة لأردني يظن أن الفلسطيني يريد أن يلتهمه. إن من يستجيب لمقولات سوداوية مقيتة يلبي فقط تطلعات الأعداء والفاسدين ويقف ضد ما يصبو إلى رؤيته يتحقق فعلا على أرض الواقع. إنه ببساطة يستسلم لغبائه من أجل أن يخدم غيره ممن لا يريد بالناس والأوطان خيرا. إنه خائن بقصد أو غير قصد. فهل يرتضي الغيور لنفسه الخيانة؟

نحن أبناء أمة واحدة ونواجه مصيرا مشتركا ومستقبلا يجب أن بنيه معا، ونحن أبناء حضارة عظيمة تضرب جذورها عميقا في التاريخ، وليس من حقنا أن نشوه التاريخ ونلطخ جبين الأمة من خلال أقاويل عارية عن الصحة ومواقف تعصبية لا تجر إلا الويلات. ألا ننتمي جميعا إلى أمة واحدة وإلى وطن واحد لا يتجزأ؟ ألا نعبد ربا واحدا ونتوجه معا في صلواتنا وحجنا وتضرعنا إلى إله واحد أمرنا أن نعتصم بحبله وألا نتفرق؟ وما هي قيمة كل الشعائر والدعوات الضارعة إلى الله إزاء سوء معاملة أخ كريم؟ لا خير في صلاة أو نسك لا تنه المؤمن عن الفحشاء ولا تدفعه إلى عمل الخير.

نحن لسنا ملائكة لا في الأردن ولا في فلسطين ولا في السودان ولا في اليمن. نحن في مرحلة قريبة جدا من التخلف وهناك من بيننا من يمارسونه بأبشع صوره، لكننا لا نأخذ الناس جميعا بجريرة شرير أو فاسد أو فاسق. هناك نسبة غير بسيطة من الذين يتجاوزون قواعد احترام الآخرين، لكن المستقيمين والمهذبين والمتواضعين كثر، ومهمة الغيورين على الدين والوطن أن يتمسكوا بغيرتهم لتكون لهم الكلمة العليا. أما أن نترك أنفسنا أدوات لهذا النظام السياسي أو ذاك تاركين الأوطان للأعداء ينتهكونها إنما نحن ندمر أنفسنا ونخرب بيوتنا بأيدينا. تغمض الصهيونية عينها على فلسطين وتفتح فاها تلتهم الأردن، فهل نغمض نحن أعيننا محاولين كالنعام حجب أنفسنا عن فواحش نعرف أنها تُرتكب بحق الوطن؟